دلالة الانتماء في شعر مفدي زكريا

د. محمد زمري

كلية الآداب واللغات جامعة تلمسان

يدل لفظ الانتماء في المعجمات العربية والأجنبية على الانتساب والارتباط والانسجام، ذلك أن التفكير في مدلوله يفرض وجود أنماط من علاقات متعددة الجوانب، ويخضع للتوزيع الجغرافي والتاريخي والعرقي، ويزيد كثافة من التراكم والتفاعل.

ويظهر أنّ تشعّب مفهوم الانتماء يؤدّي إلى إفراز عدد غير قليل من الاستفهامات والتساؤلات، ذات صلة بالطروحات الفلسفية والفكرية والاجتماعية والنفسية والسياسية؛ هل الانتماء فكرة وجودية؟ وهل تعدّ القناعة الفكرية أساس كل انتماء؟ ما علاقته بالإثنية والهوية الثقافية واللغوية وبالموالاة والانخراط السياسي والقيم الأخلاقية؟ كل هذه الأسئلة وما شابهها تشي بوجود تعقيد في المفهوم، وبعمقه وتعدّد صوره وأشكاله، حتى إننا لا نستطيع الإحاطة بكل القضايا والإشكاليات التي يتضمنها هذا المفهوم من الداخل، والتي تحيط بها من الخارج في مجالات وميادين عديدة.

ولقد ورد عند الدارسين مرتبطا بالنظام والتجمّع الواسع بالانخراط في النظام، وتطوير الشخصية إيجابيا، كما أنه ضرورة نفسية واجتماعية وأخلاقية ودينية؛ كالتعاون والإخلاص، والضحية والمولاة، وخلق حالة تعاقدية بين الفرد المنتمي والمؤسسات المختلفة التي تشكل إطاره الزماني والمكاني.

وحقيق بنا أن نلمح إلى أن عاملي التتابع والتزامن في قضية الانتماء يفضي إلى وضع مجموعة من الدوائر والمسميات بحسب طبيعة التفاعل الاجتماعي؛ فهناك الانتماء إلى الأرض المحكوم بالتاريخ والعرق، وهناك الانتماء الأسري، والانتماء الإيديولوجي الذي ينطوي على قناعة فكرية معينة تؤمن بها فئة اجتماعية معينة. نجد انتماء مذهبيا أو دينيا أو طائفيا أو لغويا، أضف إلى ذلك إيقاع الأحداث التي تطبع المواقف بطوابع معينة تؤدّي إلى تحديد طبيعة الصراع والتوافق.

وما دمنا نميد بالبحث غلى تناول قضية الانتماء عند مفدي زكريا فإن ذلك يفضي بنا إلى عدم الاكتفاء بالنتاج الشعري فحسب، بل يجب علينا الخوض بالدرجة الأولى في تفاصيل حياته، والوقوف عند كل محطة ساهمت في تشكيل انتمائه، ولاسيما فترة الاستعمار؛ بدءا من نشأته وتلقيه العلم، وتنقلاته، وانخراطه الحزبي، ومواقفه من التيارات السياسية، ودوره في النشاط الصحفي.

فالمترجم له هو زكري بن سليمان بن يحيى بن الشيخ المعروف بمفدي زكريا، اختلف في يوم ولادته؛ إذ إن وثائق الإدارة الاستعمارية لمحافظة الجزائر تنصّ غلى أنه ولد في 1909 ، بيد أن ازدياده المسجل في بطاقة التعريف كان يوم 12 أبريل 1913، وأما دواوينه فقد سجل على أغلفتها أنه ولد في سنة 1913. ويرجح[1] أنّ ميلاده كان يوم 12 ربيع الأول 1326 هـ المصادف 15 أبريل 1908 .

وأمّا نشأته التعليمية فلقد كانت مصدر تنشئته وأساس تشكيل انتمائه؛ إذ تشير الدراسات الاجتماعية إلى أن الدراسات الاجتماعية إلى أن أوساط الانتماء تتشكل من مختلف الأوساط (التي تنتج فيها عناصر التنشئة الاجتماعية، وتتحد بداخلها مع الأفراد المكونين لها من النواحي البيئية والاقتصادية والسوسيولوجية، فهي الأوساط التي يكون فيها جزء لا يتجزّأ منها، والتي ينتمي إليها بصريح العبارة، وأهمّ أوساط الانتماء نصادف الوسطين الريفي والحضري ... والجماعة العرقية والقومية والثقافية والطبقة الاجتماعية.[2]

فمفدي نشأ في بيئة ريفية، إذ ترعرع في واحة بني ميزاب بقرية بني يزقن، دخل الكتاب لحفظ القرآن الكريم ، وتلقى مبادئ الفقه، ولما اشتدّ عوده انتقل إلى تونس ليكون ضمن البعثة المزابية، وهناك بدأ يكتسب الوعي، ويتحسس الوطنية والنضال.

ويبدو أنّ إنشاء المدارس الحرّة في ظل الاستعمار كان هاما جدا؛ لما في ذلك من الحفاظ على الهوية، وخلق روح الانتماء في نفس الشخص منذ الصغر، بفضل البرامج والدروس واللغة التي كانت السياج الحصين للمتعلمين.

---

[1] ينظر مفدي زكريا وإنتاجه الأدبي رسالة دكتوراه أنجزها الباحث مصطفة حمودة ـ كلية الآداب واللغات جامعة تلمسان ـ الجزائر.

[2] مبادئ في التنشئة الاجتماعية ـ د. عبد العزيز خواجة ـ ص 46 ـ دار الغرب للنشر والتوزيع ـ 2005 .

وهذا ما جعل مفدي زكريا يتحسّس أسمى معاني الوطنية، إذ وجد في بعثة الشيخ أبي إسحاق أطفيش والشيخ محمد بن الحاج صالح الثميني الفضاء المناسب للتفتح على مدركات قاموس النضال والوطنية والحرية. ولكم كان متعلقا بالمدرسة التي كان يتلقى دروسه من علماء تونسيين أجلاء بعثوا الثقافة العربية الأصيلة في نفوس الجيل الصاعد.

ويظهر هذا في حادثة جرت وسببت له المعاناة والإحساس بالغبن، والحرص الشديد على البقاء في تونس لتلقي العلم؛ فقد تناهى إلى سمعه أنّ أخاه الأكبر طلب من رئيس البعثة إرجاعه إلى قريته بسبب الضائقة المالية التي تحول دون ضمان مصروف دراسته، لكن رئيس البعثة رفض إرساله إلا بأمر من والده دون غيره. فما كان من مفدي إلا أن كتب رسالة إلى أبيه تنمّ على وعيه المبكر بدور العلم في تحقيق الانتماء الوطني، يقول (اعلم يا والدي أن أخي محمد أرسل جوابا يريد أن أفارق العلم، وهو السبب في سعادتي وسعادة وطني الشهيد المفدّى، كيف أفارق العلم وهو الدواء للداء الساري في جسم مجتمعنا؟ كيف أفارق العلم وهو السبب الوحيد والأمر الفريد في إنقاذ وطني من سيطرة الرق والعبودية إلى بحبوحة العيش وحياة الحرية؟ كيف أفارق العلم وهو الذي كنا بوجوده أساتذة العالم، وها قد صرنا كالفأر في يد السنور، أو كالماء في يد الظمآن؟ اللهم رحماك ، أين الإحساس؟ أين الشعور؟ أين الثبات؟ أين الرجال الذين يُفدون الوطن بدمائهم لا بمالهم في سبيل تعليمهم فقط؟ آه فوا أسفاه على ذوي العقول السخيفة الذين يخربون بيوتهم بأيديهم ويقتلون أنفسهم بسلاحهم وهو لا يشعرون.)[3]

مضامين الانتماء وأبعاده عند مفدي زكريا

أشرنا سابقا إلى أننا لا نكتفي بإبداعه الشعري فقط لتسويغ دلالات الانتماء عند صاحبنا، بل سنبحث في الجانب الحفي وغير المعروف من حياته ومنعرجاته لدى بعض القراء لعلنا نصل إلى إعطاء صورة مستوفاة عن شخصيته.

[3] ورد هذا المستل من الرسالة في كلمة نجل الشاعر الشيخ سليمان في افتتاح الملتقى الدولي مفدي زكريا شاعر التحرر المنعقد في ديسمبر 2007

تذكر كتب التراجم أنه لما تم له تحصيل العلم المطلوب بتونس، وتفتقت قريحته، وغدا ثاقب الفهم، وجاد البصيرة، وحاضر البديهة، عاد إلى الجزائر واختار مهنة التجارة والكتابة الصحفية، لاعتقاده أن التجارة ترضي طموحه، وتحقق حريته في التنقل، وتسهّل له ممارسة نشاطه السياسي والحزبي.

البعد السياسي لانتماء مفدي

شهدت فترة الثلاثينات تحركا سياسيا واسعا في الجزائر أدّى غلى إفراز تيارات سياسية؛ بعضها يتواصل مع الفرنسيين ويريد الالتحاق بفرنسا، وبعضها يطمح إلى الاستقلال ونيل السيادة، وبعضها الآخر يقف ما بينهما.

ولعل وعي مفدي زكريا للأحداث واستيعابه للرؤى السياسية جعله ينساق إلى ما جبل عليه، وما تراكم في ذهنه من نشدان الحرية التي أحاط بها في المؤسسات الثقافية والتعليمية التي تخرج منها، ألا وهو التيار الذي يطمح إلى الانتماء الوطني التحرري؛ فانخرط في نجم الشمال الإفريقي[4] ثم حزب الشعب الجزائري بعد حل النجم ثم جبهة التحرير الوطني بعد حل حزب الشعب.

وننبه على أنّ مسار هذه التنظيمات متماثل في القضايا المصيرية والجوهرية بعد جعل انتماء مفدي زكريا يتسع أفقه، ويحدّد توجّهه ، ويكسب نتاجه الأدبي بُعدا ثوريا يكتنفه الحماس. ذلك أن الوعي الذي طبع وطنيته وشخصيته النضالية دعاه إلى الانضواء تحت نجم الشمال الإفريقي أولا، لأنّ الوثائق التاريخية وكتابات مفدي تدل على تحقيق الانتماء الوطني الجزائري من جراء مبادئه ونداءاته.

كان النجم متفتحا على تيارات عديدة تحرص على الالتزام بالوطنية، فهي حركة (تتضمن اليسار وأصحاب الجزأرة والتوجه الإسلامي، مما جعلها تمتلك وسائل سياسية قوية وفاعلة، ولاسيما حين وحّدهم نداء المطالبة بالاستقلال التام للجزائر، ورفض الالتحاق بفرنسا)[5]

---

[4] جمعية نضالية ذات طابع سياسي نشأت 1226 *تحت زعامة مصالي الحاج*.

[5] L`algerie nation et société, Mostefa LACHERAF, P.194, SNED ALGER 2 édition 1978

وبعد حل نجم الشمال الإفريقي أسس مناضلوه حزب الشعب الجزائري، وكان مفدي قد وجد المجال لتعميق نشاطه السياسي، وتقوية انتمائه السياسي حتى إنّ التحول من الشمال الإفريقي غلى الوطني الجزائري أوجد وقعا كبيرا في نفسه، لأنه كان دائما يرى أن تكثيف النشاط السياسي يجب أن يكون بالجزائر أكثر مما يكون في خارجها، وهذا ما يتجلى في إضافاته لعبارات وشعارات في المناشير الخاصة بالتنظيم في الجزائر دون سائر بلدان شمال إفريقيا، وتجلى هذا في التوجه الجديد الذي (تجسد في حزب الشعب الجزائري كرسه في كتاباته باسم النجم في مناشيره وفي النشيد الوطني ، والبلاغ ، وفي كتاباته الشخصية ورسائله الخاصة، فقد كان يسمي نجم شمال إفريقيا الحزب الوطني الجزائري ــ وهي تسمية قصر فيها نشاط التنظيم على الجزائر دون غيرها من بلدان الشمال الإفريقي)[6] .

ويجدر التنبيه على أن مفدي زكريا كان يسخر كل خواطره وكتاباته، ونظمِهِ لتأكيد الانتماء إلى الأرض وإلى التاريخ والوطن من خلال تبنيه موقف حزبه الرافض لمشروع بلوم فيوليت الداعي، والنابذ لدعاة الاندماج من بعض التيارات الجزائرية، والداعي إلى محاربة الاستعمار ليصبح الوطن الجزائري حرا..

النشيد الوطني:

إن انتماء نفدي ونزوعه إلى التعبير عن ولوج إطار فكري معين وفق ما يتطلبه الالتزام بمقاييس الوطنية، والدفاع عن كل القناعات التي حدّدت شخصيته،ولأجل ذلك أحسّ بدافع قوي إلى شحذ قريحته ، وسبي خواطره لإنجاز قالب فني يصوغ فيه معالم انتمائه الوطني، الذي يجب أن يكون حافظا قويا لمصير الشعب الجزائري،ويمكن أن نقسم هذا النشيد[7] إلى مجموعة من المقاطع:

الأول: الانتماء إلى نجم شمال إفريقيا، والإشادة بزعيمه، والربط بين الجزائر والهلال والعربية،

فداء الجزائر روحي ومـ ـالي ألا في سبيل الحرية

فليحي حزب الاستقـ ـ ـ ـلال نجم شمال إفريقيـ ـة

[6] مفدي زكريا وإنتاجه الأدبي ـ مصطفة جمودة ـ ص: 210

[7] ينظر نجم الشمال الإفريقي وثائق وشهادات ـ محمد قنانش ومحفوظ قداش ـ ص: 67 ـ ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1984.

وليحي زعيم الشعب مصالي مثال الفدا والوطنيـة

ولتحي الجزائر مثل الهـلال ولتحي فيها العربيـة

سلاما سلاما أرض الجـدود سلاما مهد معاليـنا

فأنت الكون دارُ الخـلـود غرامك صار لنا دينا

فإنا حولك مثل الجـنـود لسان هواك يُناجـينا

سنرعى حقك مثل الأسـود ولو قبضوا بتـراقينا

الثاني : تمجيد الأرض والدفاع عنها حتى الموت، وتأكيد أصالتها وأصالة قومها وتاريخها، فقد ذكر أسمى معاني الانتماء وفضائله، كالفداء والتضحية، والحق والعزة، والكرامة والحرية، ونكران العبودية،ورفض الامتزاج بفرنسا، ورفض التجنيس الذي أرادت فرنسا فرضه على الشعب، والتمسك بالإسلام، والتسلح بالعلم، والاستقواء بالاتحاد والتضامن.يقول:

سرى بالروح دم الفاتحين فأذكى فيها معاني الفدا

نخوض الكون مع الخائضين ولا نرتدّ ولو بالرّدى

ونعلي الصرخة مع الصارخين ننادي العزّة والسؤددا

فلسنا نرضى مع العالمين حياة نبقى بها أعبُدا

فلسنا نرضى الامتزاجا ولسنا نرضى التجنيسا

ولسنا نرضى الاندماجا ولا نرتدّ فرنسيسا

رضينا بالإسلام تاجا كفى الجُهّال تدنيسا

خلقنا بحكم الهوى إخوة فتبت يدا كل من فرقا

نريد حياة لنا حرة كفانا كفى من حياة الشقا

بلادي يمينا مقدسة سترعى عهدك طول البقا

وفي المقطع الأخير أنهى الشاعر نشيده بالارتكاز على أهم قيمتين من قيم الانتماء؛ وهما الاستقلال والحرية، قال:

ألا في طريق الهدى سعينا ألا في سبيل العلا والجهاد

ليسطع بأفق السما نجمنا ويُلقي الرّوعة في كل نادي

فها هو ذاك اللوا مُعلنا حملناه ذا اليوم فوق الفؤاد

فها هو أحمد يحدو بنا وها هو جبريل فينا ينادي

ألا في سبيل الاستقلال ألا في سبيل الحرية

لم يعد هذا النشيد شكلا أدبيا يتضمّن التعبير عن انتماء مفدي زكريا الوطني، بل غدا لسان المناضلين في حزب الشعب والسواد الأعظم من الناس، والأداة البليغة في التعبير عن الانتماء، لأنه وجد طريقة إلى الجزائريين في مناطق مختلفة من القطر، وليس هذا فحسب بل تعدّى حدود الجزائر الذين كانوا يدرسون في تونس.

ولعل هذا الانتشار أكسبه أهمية كبيرة، وخطورة بالغة الأثر على الاندماجيين والشيوعيين الجزائريين، وأتباع السلطة الاستعمارية، إذ إنّ هذا الاستنكار من مفدي كان ذا وقع كبير عليهم[8] بقدر استئثاره نفوس الوطنيين ولاسيما أنصار حزب الشعب الجزائري. وهذا ما أكدته بعض الوثائق التاريخية، ففي واحدة منها سُرِدَ ما يلي (في 14 يناير 1937 انعقد اجتماع المؤتمر الإسلامي الجزائري تحت رئاسة العمودي، إذ افتتح بنشيد المارسييز [وهو النشيد الفرنسي] ثم بالنشيد الشيوعي الأممي، وقام الوطنيون الذين كانوا في القاعة يرددون النشيد الوطني الجزائري الذي ألفه مفدي، فأخرجوا من القاعة بقرار من المكتب بواسطة الشرطة)[9] .

وفي خضم هذا النشاط السياسي والثقافي كانت السلطات الاستعمارية تضيّق الخناق عليه، وتلاحقه في كل مكان، وكانت ترى فيه الخطر الكبير على عليها وعلى الاحتلال الفرنسي،فسجلت عنه تقارير كثيرة عن تلك المتابعات له في داخل الجزائر وخارجها، ومن ذلك تقرير مركز الاستعلامات الاستعمارية بقسنطينة (يجب أن يسجّل أن المناضل مفدي زكريا من الجزائر هو عضو في حزب الشعب الجزائري ورئيس اللجنة الرئيسية للخلية الجزائرية القديمة لنجم شمال إفريقيا، ذهب إلى تونس ما بين 5 و 22 جوان 1937 حيث كانت له مباحثات مع الحبيب بورقيبة وبعض القادة الدستوريين.)[10]

---

[8] Histoire de nationalisme Algerien, D^R Mahfoud kaddache 2/531 – SNED ALGER 1980.

[9] نحم الشامال الإفريقي ـ محمد قنانش ومجفوظ قداش ـ ص: 126

[10] مذكرة شهرية للمعلومات خاصة بالسياسة الأهلية في عمالة قسنطينة. موجودة بمركز أرشيف ما وراء البحار فرنسا (CAOM)

ومما لا يدع للشك مجالا أنّ مركز أرشيف ما وراء البحار (CAOM) الكائن بمرسيليا فرنسا تعجّ رفوفه بمثل هذه التقارير التي تستشف منها أن مفدي وبقية المناضلين عانوا كثيرا ملاحقات الاستعمار والتي انتهب بهم إلى أن الإدارة الاستعمارية رأت فيهم الخطر فحكمت عليهم بالسجن، لكن شاعرنا وجد في هذا المكان الفضاء الأرحب لبث روح الانتماء بشعره الوطني بين المساجين، حتى إنه كان يسرّب بعض النصوص إلى خارج السجن لتنشر في الجرائد والمجلات، كما هو الشأن في نشيد (اعصفي يا رياح).

البعد الإفريقي لانتماء مفدي

مما لا شك فيه أن الجغرافية الطبيعية للجزائر تميّزها من سائر الأقاليم الأخرى المجاورة بكونها بوابة إفريقيا، إذ استطاع الاستعمار الفرنسي الهيمنة على مناطق كثيرة في إفرقيا بعد تمكّنه من احتلال الجزائر، إلى ذلك نشير إلى أنّ الفكر الاستعماري كان يصنف الشعوب المستعمرة وفق رؤيته العنصرية وعصبيته الدينية، ذلك أن الاستيطان خوّل له فرض انتماء الجزائر إلى فرنسا (ALGERIE FRQNCAISE) ، وأطلق على الجزائريين تسيمة المسلمين لتحييد عن الفرنسي ، أي كل من لم يكن من المعمرين فهو مسلم ويحتلّ المرتبة الدنيا في السلم الاجتماعي.
ولعل وعي مفدي لهذه الحقيقة راح يعلن اعتزازه بهذا الانتماء،وليس هذا فحسب بل بالانتماء الإفريقي، وحثه الأفارقة على النهوض وامتلاك زمام أمورهم،ونشدان الحرية والوحدة، وردّ ظلم الظالمين،والتسلح بالدين والأخلاق النبيلة، وتجاوز الجهل، وتقوية الروابط لتكون أفريقيا حرة ذات سيادة، قال:

على منبر النادي أحَيِّي بني النادي ... لتستمع الدنيا روائع إنشادي
واملأ أكواب النجوم سُلافة ... من الشعر جبريل بها رائح غادي
ويتلو فمُ الأجيال فرقان حِكمتي ... وإعجاز آياتي على فتية الضاد
وتلقيه أملاك السماء رسالة ... لإفرقيا من زنجبار إلى الوادي[11]

إلى أن قال:

نهوضا بني إفريقيا من سباتكم ... فإنّ عيون الحادثات بمرصاد
تناديكم الأجداد من رمم الثرى ... فلبُّوا غلى العلياء دعوة أجداد

[11] أمجادنا تتكلم جمع وتحقيق مصطفة حمودة - ص: 114

نهوضا بنا نحو الحياة ونظرة إلى أمّة أمست ضحيّة أحقاد
وهل نحن إلا أمّة أحمدية مقدّسة غرا سليلى أمجاد[12]

البعد المغاربي لانتماء مفدي:

إنّ الامتداد الجغرافي لمناطق المغرب العربي ليدل بوضوح على الرابطة الدموية والإثنية واللغوية بين شعوبها، وعلى مدى التراكم التاريخي الذي حدث عبر مسافات زمنية طويلة، مرورا بما أحدثه الفتح الإسلامي، وليس هذا فحسب،بل أسهمت في ازدهارها.

كما شهدت أراضيها الصراع والتوافق والتفاعل والتقهقر، إلى أن وطئ الاستعمار أراضيها، وحاول تشويه شخصيتها، والانحراف بهويتها وانتمائها الحضاري، وكان وقع الاستعمار قويا على الجزائر إلى حدّ أنه غدا استدمارا يبغي سلب الشخصية الوطنية، ونزع المجتمع من جذوره وتاريخه العريق، وربطه بشعب قادم من وراء البحار، غريب عنه بعاداته وتقاليده وعقيدته.

وإزاء كل ذلك وقف الوطنيون الأحرار ضد هذا الانحراف والاستعباد، فعبّروا عن ذلك بشتى الوسائل وعلى رأسها أصحاب القلم المكافح، فكان شاعرنا مفدي أحد حامليه منذ صغره، فكبّر وعبّر، وصاغ حروفا وكلمات بنبرة فنية، ولغة جميلة توائم بين الحس والعقل، وتزرع عبارات، وتنثرها عبر الأثير، ليكون وقعها قويا شديدا، ليغرس في النفوس والأفئدة نبتة الانتماء إلى المغرب العربي الموحد بكل قيمه ومثله ، قال:

لُحْ في الجزائر كالهلال ضياءَ وانزل كريما كالنسيم صفاءَ
الدهر يحفظ والشباب حياله في تلمسان يقرر الأنباء
جَمَعَ الهوى فيه ثلاثة أضلعٍ ما عوّدت لولا الزمان جفاء
إنّ الجزائر في الغرام وتونسا والمغربَ الأقصى خُلِقنَ سواء[13]

وقال في قصيدة صوت الجزائر الذي أطلق عليها (بردة الوطنية الجزائرية) :

ودمٌ طاهرٌ وروحٌ وأمشا جٌ تشُدُّ العروقَ والأوصالا
تونس والجزائرٌ اليوم والمغـــ ـرِبُ شعبٌ لن يستطيع انفصالا
وحدةٌ أحكمَ الإلهُ سداها من يُردْ قطعها أراد محالا[14]

---

[12] أمجادنا تتكلم ـ ص: 116 / 117.
[13] المصدر نفسه ـ ـ ص: 131
[14] المصدر نفسه ـ ص: 141

ويقول في ملحمة بنت العشرين التي نظمها بمناسبة الذكرى العشرين لاندلاع الثورة، وعنونها بـــ (صدق الوعد)

أنت في المغرب الموحّد كالنســـ ـــرجناحاه لحمة وأواصر
كم تناجي قرطاجُ سرتا فيهفو لحديث الغرام وادي الجواهر[15]
تونس الحب والجزائر والمغـــ ـــب شعب موحّد متآزر
لا فروق لا غربة لا نشاز لا انحياز لا نزعة لا عناصر[16]

وقال أيضا:

ومضى من ملاحم الثورة الكبـــ ـــرى يشيع الهوى ويذكي المشاعر
وتنـادى بمغـــرب عـــربي وحّدته طوعَ الجراح الأواصر
لما يزل صادحا على كل غصن من ذُرى مغربِ الأُباةِ القساورِ[17]

وفي كتاباته النثرية عمد إلى التاريخ القديم ليؤكد أنّ المغرب الكبير كان موحدا في عهد القرطاجيين، وكان موحدا في عهد النكبة أوان الاستعمار الروماني فدحره بجهوده الموحدة، وفي عهد الوندال شهدت أقاليم المغرب الكبير توحدا، ولما جاء الفتح الإسلامي أحسّ شعوب المغرب الكبير الانتماء المثالي تحت راية الإسلام، قال: (... ففي عهد القرطاجيين حاول ملوك نوميديا أ، يجمعوا شمل كامل المغرب الكبير فيما بين دولة قرطاجنة " مملكة تونس " ودولة موريطانيا " مملكة مراكش " ونجحوا لأول مرّة في التاريخ، كذلك الاستعمار اللاتيني، وحتى في عهد الاستعمار الروماني البغيض كان المغرب الكبير موحدا في النكبة والبلوى ، وفي تدبير المقاومة ضد الغاصب المعتدي، ما جعل أبناء البلاد تحت إمرة زعيمهم " جون صاريق " وطوّقها من المغرب إلى المشرق فالتفت حوله جموع الأمازيغ ... وجاء الإنقاذ من الشرق غلى يد محمد صلّى الله عليه وسلم فغيّر مجرى الحياة، وتوحّد المغرب العربي عن طريق الفتح...)[18]

.

.

---

[15] قرطاج: ضاجية بالشاطئ التونسي ـ سرتا : بلدة بالشرق الجزائري ـ وادي الجواهر: نهر بفاس
[16] قصيدة صدق الوعد ـ مجلة الأصالة السنة الرابعة العدد 25 / 1975 ـ ص: 91
[17] أمجادنا تتكلم ـ ص: 268
[18] مقال (فكرة المغرب العربي الموحد خلال التاريخ) نشره في مجلة الفكر السنة السادسة نوفمبر 1960.

البعد العربي لانتماء مفدي:

لا يخفى على أحد أن الوثائق التاريخية تنص على أن الإسلام عرّب الجزائر وسائر أقطار المغرب الإسلامي؛ فبعد الفتح أخذ الإسلام في الانتشار، وحدثت المصاهرة، وامتزجت الدماء إلى أن صار المجتمع منصهرا في شعب واحد لا يبغي غير الإسلام دينا له،ولغة القرآن غاية مثلى يجتهد في بلوغها.

إنّ الامتداد الجغرافي بين الجزائر والمدن العربية مترابطة، مما سخر الامتزاج والتبادل العلمي والثقافي حتى أصبح مستقرا في قرارة كلّ فرد أنّ انتماءه العربي دينا ولغة ودما ثابت، فكان سلاحا قويا صد الاستعمار الفرنسي ورده عن سلب شخصيته وهويته طوال قرن ونصف، فلن نجد إلا نداء العروبة والإسلام.

وإنّ من (يتبع الحركة الثقافية والأدبية في الجزائر يدرك تماما أن الأدباء والشعراء كانوا يسعون باستمرار إلى تمتين الروابط مع المشرق العربي على الرغم من الظروف التي كانت تعيشها الجزائر داخل الأسوار، حيث فرض عليها الاستعمار عزله لم يشهدها أيّ شعب من الشعوب المستعمرة، فكل ما يمت بصلة كان محرما على الجزائر،والسفر والتعليم كانا لا يتمان إلا بالهجرة أو الهرب، والصحف كانت تصل على أيدي الناس كالأشياء المهربة، ومثلها الكتب التي حرّم تدريسها والانتفاع بها، وخاصة تلك الكتب تدعو إلى يقظة الأمة العربية الإسلامية)[19] .

والمعروف أن صاحبتا مفدي زكريا كان متشبعا بروح القومية العربية، وبقيمها ودورها في تعزيز الانتماء وتقويته لتكون الوطنية مبنية على أسس متينة روحها الإسلام/ وجسدها اللغة العربية، وكان دائما رافعا يده يخاطب الشعب، ويعبّر عن مآسيه وجروحه، وفي الوقت ذاته، ويشحذ عزيمته، ويعمّق انتماءه العربي الذي يكتسي القدسية والأنفة، يقول:

أيها الشعب والخطوب جِسام ... والحشاشات لا تطيق احتمالا

أيها الشعب والشمال جريحٌ ... رشق القوم في حشاهُ النبالا

أيها الشعب والجزائر تشكو ... في ثنايا الضّلوعِ داءً عُضالا

وتنادي بني العروبة وامعـــ ... ـصماه قد أحكموا الاغتيالا

سطّروا حولها برامج للمســـ ... ـخ وحَطّوا على فِناها الرِّحالا

إن شعبا على العروبة والإســـ ... ـلام قد شبَّ لا يُطيق فِصالا

---

[19] قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر ـ د. عبد الله الركيبي ـ ص: 15 ـ الدار العربية للكتاب ليبيا وتونس / 1977.

إنّ تربا مُضَمّـَخا بـــــــــدماءٍ من جدودٍ لا يستطيع اعتزالا
إن جنسَ النبيّ صعبٌ على الهَضْـــ مِ فيا غرْبُ كفّ عنكَ المحالا[20]

وحقيق أن نشير إلى أن القضية الفلسطينية كانت المحور الأساس في هذا الانتماء، وفي الدعوة إلى الوحدة، ومقاومة الاحتلال؛ فمفدي زكريا كان منخرطا في (لجنة الدفاع عن فلسطين العربية)، هذا البلد الجريح الذي توالت عليه المآسي والمحن، وأحاطت بقدسه الأخطار، فاندفع بحكم انتمائه المثالي إلى صوغ بيان يتضمن الملاحقات والمتابعات من الإدارة الاستعمارية التي قيدت نشاطه الداعي إلى مناصرة فلسطين وجمع التبرعات لها، فقال: (يوم 14 أوت عند الساعة الثامنة مساء بينما كانت طلائع الوفود تجمع الاكتتاب لفائدة فلسطين العربية في المقاهي والدكاكين كما يفعل الأجانب لفائدة إسبانيا، واليهود لفائدة الصهيونية، إذا بقوات من البوليس السري والعلني تهاجم رجال الاكتتاب، وتلقي القبض عليهم، وتسوقهم للسجن بكلّ عنف وشراسة وهمجية، بعد أن حجزت ورقهم [أي بطاقات الاكتتاب] ومما يحملون من نقود لفائدة المجاهدين العرب بلفسطين، أشبعت بعضهم ضربا، وأودعتهم السجن، إننا نحتج أيتها الحكومة الديمقراطية، نحن أحرار قبل كل شيء)[21] .

وتدل النصوص التي ألقها مفدي عن القضية الفلسطينية أن كان يعبر عن المأساة الملمّة بالبلدان العربية، ناقما على المواقف السلبية لمن كان يعيش لنفسه ولا يفكر في مصير الجيل الجديد، وكان يرى ببصيرته أن مكانة القدس في النفوس ستدفع هؤلاء إلى تجاوز النكبة، والنهوض والعمل على استرجاعه، قال في معلقة المصير:

سنهرع للصلاة ببيت قُدْسٍ ونعلي الهام عُرصَ الاحتفال
وجنح في الصراحة كل سهم عميق الفهم بالداء العضالِ
ذروها تلتهب نورا ونارا وتتكسر النصال على النصال
وخلوا فلسطين تصغ قرارا فما يحتاج في الدنيا لوالي
فأهل الدار أدرى بالحنايا وأعرف بالحرف وبالحلال
وأرض القدس أرضُهُمُ ذروهُمْ وأرضَ القدسِ من قيلٍ وقالِ[22]

ولا شك في أن الركيزة الثابتة في انتماء مفدي الوطني والقومي والديني هي اللغة العربية التي كان يرى الاستعمار فيها الحاجز الذي يجب أن يُزال، ليصبح الشعب في متناوله،

---

[20] أمجادنا تتكلم ـ ص: 143
[21] تقرير من مكتب الاستعلامات الفرنسية موضوعه حزب الشعب الجزائري والمسألة الفلسطينية ـ مركز الأرشيف بفرنسا (CAOM)
[22] أمجادنا تتكلم ـ ص: 238

ويصبح انتماؤها متلاشيا، لكن الدفاع عنها بشتى الطرق والوسائل كان منوطا بالمدارس الأهلية، والزوايا، والكتاتيب، والحركات الإصلاحية، والعلماء وعلى رأسهم ابن باديس.

وحتى لا نطيل الكلام عن قضية حركت مفدي منذ صغره نكتفي بالإشارة إلى أنه كان مخلصا للغته، ومحبا لجمالها، ومتوسلا بها للدفاع عن قضايا شعبه، وأروع مثال نسوقه في هذا الشأن هو أن معظم أعضاء نجم الشمال الإفريقي كانوا يستعملون اللغة الفرنسية في نضالهم، لكن مفدي بعد انخراطه أحدث تغييرا لم يكن متوقعا، إذ أصبحت اللغة العربية تستعمل إلى جانب اللغة الفرنسية؛ وهذا انتصار له ولانتمائه،فلقد أعطى اللغة العربية منزلة لائقة في التنظيم، ولاسيما بعد سعيه الحثيث إلى إنشاء صحف، والإشراف على تحريرها، كما هو الشأن في جريدة الشعب الذي وجد فيها ضالته، فذبجها بعبارات وطنية، وبعناوين لافتة الانتباه مثل: (جريدة الشعب ــ لسان الحركة الوطنية بالجزائر المسلمة العربية، وما أن صدرت حتى هرعت الإدارة الاستعمارية إلى إيقافها وكتابة التقارير[23] عنها، ونعتها بأخطر النعوت مثل: (جريدة ذات اتجاه متطرف) (إنها صحافة باللغة العربية) (إنها تدعو إلى التهييج والتحريض).

لقد استطاع مفدي أن يجعل اللغة العربية لسان حال الحزب إلى جانب اللغة الفرنسية.

البعد الإسلامي لانتماء مفدي:

إنّ تتبع كتابات مفدي وخطاباته لتفضي إلى حصيلة مؤدّاها إنّ الانتماء الإسلامي هو أعلى مستوى الانتماءات، ذلك أنّ الدين الإسلامي شامل للعالمين، وفيه تنصهر الأعراق، ويقوى التواصل، ويعظم الارتباط.

والشاهد في سيرة مفدي أنه نشأ نشأة دينية، واستوعب العلوم الشرعية، واكتسب العلوم العصرية، فراح يدعو إلى العربية والإسلام، ووقف في وجه أعداء الإسلام ولاسيما الشيوعيين بعامة والجزائريين المنسلخين عن هويتهم، والمنغمسين في ملذات الأممية، وانساقوا إلى ما تمليه عليهم الأفكار المناوئة للدين، وكانوا من دعاة الاندماج واعتبار الجزائريين من الشعب الفرنسي.

ها هو مفدي كغيره من ذوي الانتماء الإسلامي يقف في وجههم، ويعرّض بهم، ويدعوهم إلى اعتماد الطريق الصحيح، فلقد تجاوز حدود المذهبية، وتطلّع إلى التوحد الإسلامي تحت عبارات قرآنية كان يردّدها دائما (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا)

---

[23] رسالة بإمضاء الوالي العلم GEORGE le beau مركز الأرشيف CAOM

فالاستعمار (لم يكن يشك لحظة واحدة في أن الإسلام كان أحد مقومات هذه الشخصية ... فكان يحاول منع الشعب الجزائري من ممارسة حقوقه في الحياة الكريمة، فحارب المدارس والقائمين عليها، ومنع الجزائريين من المطالبة بحقوقهم المشروعة في السيادة والاستقلال، كل ذلك كان يجري من جول الشعب الجزائري الذي اختار في آخر المطاف الوطنية والعروبة والإسلام)[24]

والحق أن انتماء مفدي الإسلامي كان مبدأ يقينيا على يقبل الشك، ولاسيما أوان الاستعمار الذي جذب إليه المنهزمين والمنادين بالاندماج، فكان صادا لهم ورادا ادعاءاتهم، ومن ذلك قوله:

عصبة الاندماج مهلا رويدا ... حسبكِ اليوم خدعة واحتيالا
إن أردتم غير الجزائر أرضا ... فاهجروا الأرض والسما والرّمالا
إن يكن بينكم فيوليت يرضى ... ليس يرضي سبحانه وتعالى
ورفات النبيء من طيبة الغرّ ... رَاء ينادي على الجزائر لا.لا
ولموسى وعقبةٍ وابن زيّا ... دٍ صراخ يزعزع الأجيالا[25]

وقوله أيضا:

سلوا ملتقى الإسلام من فيه خلدنا ... ومن ألهم الأرواح أن تعشق الحُسنا
وفينا أصالات سَمَت بضميرنا ... ولم يتجاوز عند بعضهم الأذنا
وفي القوم من غشّى الضّياع عقولهم ... فذابوا مع المستغربين وما ذبنا
ونحن أناس إن عصينا فعذرنا ... إلى الله إن خانوا العقيدة ما خنا
وإيماننا أرسى الجمال عروقه ... ولو لم يكن هذا الجمال لما كنا
وإسلامنا ما كان فينا وراثة ... ولكننا بالعقل فيه تعمقنا[26]

ويجدر التنبيه ها هنا على مسألة في غاية من الأهمية، ومؤداها أن هذه الأبعاد المذكورة سابقا تترابط وتتداخل إلى حد التشابك، إذ لا ينبغي أن تفهم أنها مجزّأة ومفصّلة في ذهن الشاعر وشعوره، وإنما هي حلقة دائرية نواتها الشاعر المنتمي، لكن ماذا لو وجدنا تعارضا أو انسدادا بين انتمائه الأسري وانتمائه الوطني. فالجواب يكون أنه واجه هذا الإشكال، وفصل في ذلك مختارا

---

[24] فصول في النقد الجزائري الحديث ـ د. محمد مصايف ـ ص: 14ش.ون.ت الجزائر 1972
[25] أمجادنا تتكلم ـ ص: 144
[26] أمجادنا تتكلم ـ ص: 261 ــ 262

الحرية الفكرية والتضحية، والنضال السياسي والوطني؛ وهذا يعني أنه كان وضع حدودا بين انتمائه الشخصي الذاتي وانتمائه الحزبي والوطني دون أن يفرط في إخلاصه للعائلة والأسرة.

فقد اتفق أن أباه دعاه إلى ترك النشاط السياسي والعودة إلى مسقط رأسه للاهتمام بأمور أسرته، فأحسّ بأن مؤامرة حيكت ضده، وأن هناك من أوعز إلى أبيه بتلك الأفكار، فما كان عليه إلا أن عبّر عن قناعته بأن ما يقوم به من نضال هو واجب ديني وجهاد في سبيل الله، فقال في رسالة إلى زكري بن سعيد أحد أصدقاء والده رسالة يسوّغ فيها موقفه: (... وبعد إنني أوجه إليكم داخل هذا رسالة أرسلها لي والدي سليمان بن يحيى كتبها تحت تأثير بعض المغرضين ولست أدري لماذا هذا التحامل والتدخل في حياتي العامة التي أرى أن أكون فيها جرا، لا يتصرف ـــحد في أفكاري؟ ولأجل هذه الحرية جرية الرجولة نحن نكابد ونجاهد،وإن أبي يريدمي أن أكون عضوا أشل في المعترك الحيوي وأنا لا أريد هذه الحياة ولم أخلق لها، وإنما خلقت لأن أدافع عن بلادي وأشترك في صف الجهاد والسعي لخير بني جنسي وللإسلام عموما... وإنني لا أتأخر عن الجهاد ولو كانت الأرض ضدي كلها ضدي)[27]

استعمالات سياقية ودلالات الانتماء

تتناثر في متون أشعار وكتابات مفدي زكريا صيغ أدبية، واستخدامات لغوية، ومضامين فكرية، وشعارات، وبعض الرموز، وأسماء شخصيات تاريخية، علماء؛ وذلك لمعاضدة انتمائه الوطني والإفريقي والمغاربي والعربي والإسلامي .

ولتتضح الفكرة أكثر نورد بعض الاستعمالات، فمنها (الحزب الحر الوطني الجزائري) ولقد تفرد بهذا الاستخدام عن بقية الآخرين من قيادات النجم. (النصر والغلبة للذين يضحون بأنفسهم وأموالهم في سبيل الدفاع عن كرامة البلاد) (مبدؤنا تحيا الجزائر جرة سعيدة) (الإسلام ديننا والجزائر بلادنا والعربية لغتنا ـــ كل من يطلب إلحاق بلادنا والمروق من جنسنا فهو أكبر عدو لنا وللإسلام).

وأما الرموز التي كان يفضل استخدامها رمز الهلال للدلالة على الانتماء الحزبي والوطني والإسلامي، وأما المحاضرات السياسية والفكرية والتاريخية فكلها كانت تجسد انتماءه، مثل: (الوطنية والدين) (الذاتية الجزائرية ومشروع فيوليت) (ويخلق ما لا تعلمون) (النشاط العقلي

[27] ينظر أرشيف زكري بن سعيد الخاص ببني يزقن

والتقدم الحضاري للجزائر على عهد الزيانيين) أضف إلى قصيدته التي نظمها بمناسبة الملتقى الثامن للفكر الإسلامي المنعقد ببجاية في ربيع الأول 1394 المصادف أبريل 1974 عنونها (ملحمة تاريخية عن بجاية) وهي في حقيقة الأمر نظم لمنثور أي إنه نظم كتاب عنوان الدراية للغبريني شعرا.

وبالنسبة إلى الشخصيات فلقد ضمنها كتاباته الأدبية للإيحاء بالانتماء الذي انتهجه لنفسه، مثل: (خالد بن الوليد ــ صلاح الدين ــ ابن باديس ــ أبو إسحاق أطفيش ــ حافظ إبراهيم ــ سامي الشوا ــ مصالي الحاج ــ حمال عبد الناصر ــ أحمد بن بلة ــ الحبيب بورقيبة ــ بعض ملوك سلطنة عمان ــ الحسن الثاني... الخ) وغيرها من الأسماء الوطنية والقومية والإسلامية.

الحصيلة:

يمكن مما سبق أن نخرج بحصيلة مؤداها أنّ نشأة مفدي زكريا حددت مصيره وربته على القيم الأخلاقية والدينية، وجعلته يتسلح بالعلم والمعرفة، ويمجّد الحرية، ويتجاوز القضايا الهامشية التي لا تخدم وطنيته وإسلامه.

ويمكن أيضا التأكيد أن كل بعد من أبعاد انتمائه يفرغ إلى الآخر، ويتسامى سمو وعيه وقناعاته، وتتسع كلما اتسع نشاطه؛ فهناك الانتماء الأسري فالانتماء المذهبي فالانتماء الحزبي فالانتماء الوطني فالإفريقي فالمغاربي فالقومي وأخيرا الإنساني، حتى وصل إلى قناعة لم يحد عنها أبدا وهي مقولته الشهيرة (كل مسلم بشمال إفريقيا يؤمن بالله ورسوله ووحدة شماله هو أخي وقسيم روحي، فلا أفرق بين تونسي وجزائري ومغربي، وبين مالكي وحنفي وشافعي وإباضي وحنبلي، ولا بين عربي وقبائلي، ولا بين مدني وقروي، ولا بين حضري وأفاقي. بل كلهم إخواني أحبهم وأحترمهم وأدافع عنهم ما داموا يعملون لله وللوطن. وإذا خالفت هذا المبدأ فإنني اعتبر نفسي أعظم خائن لدينه ووطنه).

الإحالات:

- أمجادنا تتكلم (ديوان شعر) جمع وتحقيق مصطفة حمودة ــ الجزائر 2003

ــ فصول في النقد الجزائري الحديث ــ د. محمد مصايف ــ ش.و.ن. ت الجزائر 1972 -

- **قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر. د. عبد الله الركيبي.الدار العربية للكتاب ليبيا وتونس / 1977.**

- **مبادئ في التنشئة الاجتماعية ــ د. عبد العزيز خواجة ــ ص 46 ــ دار الغرب للنشر والتوزيع 2005 .**

ــ مفدي زكريا وإنتاجه الأدبي رسالة دكتوراه أنجزها الباحث مصطفى حمودة ــ كلية الآداب واللغات جامعة تلمسان ــ الجزائر. 2010

- نحم الشمال الإفريقي ــ محمد قنانش ومحفوظ قداش ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1984

ــ مجلة الأصالة السنة الرابعة العدد 25 / 1975 ــ ص: 91

- مجلة الفكر السنة السادسة نوفمبر 1960.

ــ مركز أرشيف ما وراء البحار فرنسا (CAOM)

Histoire de nationalisme Algérien, D^{R} Mahfoud kaddache 2/531 – SNED ALGER 1980.

L`Algérie nation et société, Mostefa LACHERAF, P.194, SNED ALGER 2 édition 1978